محمد بن العربي العلوي :
الداعية السلفي والوطني المصلح

الفقيه الإدريسي

جامعة مولاي سليمان - بني ملال-

لا شك أن استعادة الذاكرة التاريخية للعلامة الفقيه محمد بن العربي العلوي، وما تخللها من أحداث حاسمة ومواقف مثيرة، يقود المرء حتما إلى استحضار الكثير من المحطات التاريخية المريرة التي تقلبت عبر أطوارها الحركة الوطنية في المغرب بعد التوقيع على معاهدة الحماية الفرنسية، وذلك لارتباط رواد الجيل المؤسس لهذه الحركة بالفكر السلفي الذي أشاعه في صفوفهم العلامة الشيخ محمد بن العربي العلوي يوم كانوا طلابا متحلقين حول حلقاته العلمية في جامعة القرويين، ومن جهة أخرى، لأن المواقف السياسية والرؤى الفكرية التي كان يصدر عنها هذا الداعية المصلح مما كان يجري في المغرب، آنئذ، من تطورات اجتماعية متسارعة وتجاذبات سياسية حادة بين الحركة الوطنية، من ناحية، والإقامة العامة الفرنسية من ناحية أخرى، كانت كلها تجسد، دونما لبس أو مواربة، غيرته الشديدة على القضية الوطنية ومساندته الصريحة والجريئة لمطالب الحركة الوطنية وعلى رأسها مطلب الاستقلال، وذلك على الرغم من الضغوط والإكراهات التي كان يفرضها عليه موقعه الوظيفي في أعلى أجهزة الإقامة العامة الفرنسية.

فمن هو إذن، محمد بن العربي العلوي؟ وكيف ابتدأ مشوار حياته شابا طموحا تحذوه رغبة أكيدة لتحصيل العلم وهو ينتسب، في نفس الآن، إلى الطريقة التيجانية؟ وكيف انتهى داعية سلفيا متمردا على الطرقية وأتباعها ومناوئا، أشد المناوأة، لفكرها ودعاتها وممارساتها؟ وما هي المواقف التي اتخذها حيال الحركة الوطنية حينما أقدمت على بعض الاستحقاقات السياسية الحاسمة عبر مسار نضالها الوطني؟ وكيف كانت ردود أفعاله تجاه إدارة الاحتلال الفرنسي حينما اتجهت إلى المس برمز السلطة الشرعية في البلاد وتنصيب بديل عنه؟ وما هي المسافة التي اتخذها لنفسه بعيد حصول المغرب على الاستقلال وما تلا ذلك من تحولات غير متوقعة في المشهد السياسي المغربي عصفت بكثير من آمال النخب الوطنية وانتظاراتها السياسية في استكمال عملية التحرير وبناء الدولة الوطنية المستقلة على أسس ديمقراطية؟

محطات في حياة بن العربي العلوي

نشأ الفقيه محمد بن العربي العلوي بالقصر الجديد في مدغرة تافيلالت سنة 1298هـ /1880م في وسط أسرة متدينة شريفة النسب والمحتد. وبها تلقى تعليمه الأولي الذي لم يكن يتعدى في الأعم الأغلب حفظ القرآن الكريم وترتيله إضافة إلى بعض المتون والمختصرات في الفقه والحديث والنحو واللغة. ونظرا لما أبان عنه في هذه السن المبكرة من حذاقة ملحوظة في الفهم والإدراك، ونباهة زائدة في تلقي الأفكار وتمحيصها، فإن هذا النبوغ اللافت قد حفز أباه مولاي العربي العلوي على استصحابه للدراسة في مدينة فاس، حيث أقام معه قرابة السنتين في مدرسة الصفارين حتى اطمأن كل الاطمئنان على حسن سيرته سلوكا وتحصيلا[1]. ومن أشهر العلماء والشيوخ الذين تتلمذ على يدهم في رحاب جامعة القرويين نذكر: شيخ الجماعة أبي العباس أحمد بن الخياط الزكاري والعلامة أحمد بن الجيلالي المغاري

والقاضي الشاعر مولاي أحمد بن المامون البلغيتي والعلامة عبد السلام بناني والشيخ الحافظ أبي شعيب الدكالي.

ولم تمض سوى بضع سنين، وهو منكب على الدراسة وحضور مجالس وحلقات العلم، حتى حاز مرتبة عليا في المدارك العلمية وفنونها واكتسب مقدرات فكرية على سبر أغوار العلوم ونقدها، استلفت من خلالها نظر زملائه وشيوخه وفي مقدمتهم شيخ الجماعة إذ ذاك العالم أحمد بن الخياط[1].

وبعد أن حصل على الإجازة انخرط في سلك العدلية بفاس ثم عين أستاذا بثانوية مولاي إدريس وبعدها قاضيا بفاس الجديد والأحواز سنة 1915م. وغداة وفاة السلطان مولاي يوسف عين بصفته قاضيا ومدرسا في جامعة القرويين[2]. وقد كان هذا التكليف، يومها، مناسبة على قدر كبير من الأهمية استغلها الفقيه محمد بن العربي العلوي لنشر أفكاره السلفية وبث قناعاته الوطنية التي وجدت لها، وقتئذ، أثرا بالغا وصدى عميقا، في نفوس وعقول شباب القرويين من أمثال: الأستاذ علال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس وإبراهيم الوزاني والهاشمي الفلالي ومحمد الزغاري وإبراهيم الكتاني وعبد الهادي الشرايبي[3] وغيرهم من الشباب والطلاب الآخرين الذين كان يلتقي بهم في ثانوية مولاي إدريس التي كانت برامجها الدراسية والتعليمية تفتح آفاقا جديدة للتكوين مرتبطة في مجملها بالثقافة الأوروبية عموما والفرنسية خصوصا.

وليس يخفى، أن هذه المحطة من حياة الشيخ بن العربي العلوي كانت في واقع الأمر، محطة مفصلية في مسار نشاطه الدعوي والتزامه الوطني، وذلك بالنظر إلى ما تلاها من محطات أخرى كثيرة لا تقل عنها بذلا وعطاء[4]، لأنه في هذه المحطة استطاع من خلال ما كان يلقيه من دروس ومحاضرات سواء في جامعة القرويين أو في الثانوية العصرية (ثانوية مولاي إدريس) أو في المدرسة الناصرية الحرة، أو من خلال ما كان يجريه من لقاءات خاصة ومذاكرات عامة، أن يعبئ جمهورا واسعا من الطلاب والشباب، بل وحتى من الصناع والتجار والحرفيين، تعبئة يذكرهم ويدعوهم من خلالها، إلى الاقتداء بما كان عليه السلف الصالح من الأمة من صلاح واستقامة وشهامة وحب للأوطان والتفاني في الذود عن حوزاتها مهما كانت الأثمان والتضحيات. وهي دعوة شكلت يومها جسرا للتلاقي والوصل بين الخطاب السلفي والخطاب الوطني اللذين مثلا رافدين متكاملين في المرجعية الفكرية والسياسية للعلامة محمد بن العربي العلوي بوجه أشمل[5].

وبعد مضي مدة ليست باليسيرة، وهو منتصب للتدريس والعدلية بنشاط وحماس لا يفتر في مدينة فاس، انتقل إلى الرباط حيث تولى رئاسة مجلس الاستئناف الشرعي الأعلى سنة 1928م، وبقي في هذا المنصب إلى أن اختير وزيرا للعدل سنة 1938م[6]، وهو اختيار جاء مكافأة له على حسن إدارته لهيئة مجلس الاستئناف الشرعي الأعلى وما تميز به من صرامة ونزاهة في تدبير ومعالجة الملفات المعروضة على أنظارها، ومن جهة أخرى، حتى يكون طوع يد الإقامة العامة فيما كانت تنوي إصداره من قرارات ومراسيم تمس في جملتها بالمصالح العليا للبلاد ومؤسساتها الشرعية. غير أن الميول الوطنية المتجذرة والراسخة للفقيه محمد بن العربي العلوي كانت أقوى من أن تنال منها إغراءات هذا المنصب السامي. فما أن شرعت الإقامة العامة في قمع رجال الحركة الوطنية بعد تقديمهم لعريضة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير من سنة 1944م وما واكب ذلك من اعتقال وسجن لعدد من رموزها ونشطائها من الطلبة والمواطنين وإغلاق لمدارسها الحرة ومصادرة لمنابرها الإعلامية، حتى قدم محمد بن العربي استقالته من وزارة العدل للسلطان محمد الخامس احتجاجا منه على سياسة البطش والعدوان التي نهجتها سلطات الحماية في مواجهة المطالب المشروعة للوطنيين المغاربة[7].

وعشية حصول المغرب على الاستقلال عين الفقيه محمد بن العربي وزيرا للتاج ليتولى دور مستشار للملك، وبقي في هذا المنصب إلى أن استقال منه سنة 1959م. ولئن كان من الصعوبة بمكان، تحديد أسباب هذه الاستقالة والإحاطة بملابساتها، إحاطة دقيقة، في ظل ما كان يمر به المغرب المستقل حديثا من مخاضات سياسية عسيرة، فإن استياءه مما آل إليه وضعه الاعتباري في موقع «المستشار الذي لا يستشار» كما كان يردد ذلك أحيانا، قد يكون، على الأرجح، أحد أهم الأسباب التي حملته على هذه الاستقالة الغامضة التي قرر العودة بعدها مباشرة للاستقرار، وإلى غير رجعة، في مدينة فاس بين أسرته وذويه بعد أن كان قد بلغ، حينئذ، من السن عتيا[8].

الاتجاه السلفي لمحمد بن العربي العلوي وفلسفته الإصلاحية

ليس سهلا أن يحدد المرء بالضبط بداية جنوح الفقيه محمد بن العربي العلوي نحو رحاب الفكر السلفي. فمما هو مؤكد في هذا الخصوص، أنه ابتدأ حياته الفكرية طالبا وفقيها وهو منغمر كل الانغمار في حضن الطريقة التيجانية التي كانت تمثل مرجع استقطاب روحي لشرائح واسعة من أهل الثقافة والتجارة والصنائع بفاس خلال أوائل القرن العشرين. بيد أنه سرعان ما انجذب إلى تشرب أفكار المذهب السلفي ومقالاته وطروحه الفكرية خاصة بعد أن انصرف إلى قراءة ومطالعة أدبيات رواده من علماء السلفية، قدامى ومحدثين، من أمثال: ابن تيمية وابن القيم الجوزية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم[9]. في الوقت، الذي لم يكتب له أن يتصل مباشرة بالمنابع الأصلية لهذا المذهب ودعاته في المشرق العربي كما فعل شيخه وأستاذه العلامة أبو شعيب الدكالي. كما كان لاطلاعه المتواصل على الكتب والصحف والمجلات التي كانت ترد من المشرق وفي طليعتها مجلتا «المنار» و«العروة الوثقى»، أو تلك التي كانت تأتي من الجزائر كمجلة «الشهاب»[10]، الأثر البين والملحوظ في «المراجعات النقدية» التي مارسها ذاتيا على مجموع الأفكار النظرية والمعتقدات الدينية التي استقرت في وعيه ووجدانه منذ نعومة أظفاره على شكل قناعات ومسلمات راسخة. دون أن ننسى، علاوة على هذا وذاك، التأثير البالغ والمحسوس الذي أحدثته في نفسيته وجماع تفكيره الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها شيخه أبو شعيب الدكالي في رحاب جامعة القرويين والتي كان لها، وقتئذ، أشد الأثر في توجيه الطلبة توجيها سلفيا صرفا يستند في إطاره الأعم إلى الدعوة إلى الاهتداء بهدي السلف الصالح وما يقتضيه ذلك استلزاما من محاربة للبدع والمحدثات وإقبال على العلم والاجتهاد في تحصيله والأخذ بأسباب التمدن والرقي من خلال إجراء إصلاح شامل في مختلف فروع الحياة ودروبها.

وهكذا وبتأثير من هذه الروافد والمؤثرات مجتمعة «..انقلب ابن العربي الفقيه العادي إلى مفكر إسلامي يكسر الأصنام ويفضح المشعوذين ويقرعهم بالحجة الدينية والعقلية.. فانطلق تلامذته يبشرون بأفكاره التقدمية ووطنيته الصادقة المسلمة وبفضله اختمرت في عقول مريديه وانطلقت تهز ما بيته الاستعمار فما وهن ولا ضعف ولم تفتنه الدنيا بمباهجها ورشاها»[11].

واللافت للنظر في هذا الإطار، أنه بالرغم من التشابه والتقارب الملحوظين في الرؤى والتوجهات السلفية الإصلاحية لكل من الشيخين أبي شعيب الدكالي وابن العربي العلوي، إلا أن أسلوبهما في التواصل ولغتهما في الخطاب، كانا مختلفين من حيث الجرأة في النقد وصراحة العبارة. فالأول «كان يلمح ويعرض دون أن يصرح»[12]، بينما كان الثاني» يهاجم ويخاصم ويشتد دون تحفظ»[13].

ولعل هذه الحدة في المؤاخذة واللغة المكشوفة في الوصف، التي لم تكن تخشى لومة لائم، هي ما جعل كثيرا من رجال الطرقية والفقهاء المتزمتين والمتواطئين مع الدوائر الاستعمارية يناصبون، الفقيه ابن العربي، أشد العداء، ولا يذكرونه في المجالس والمحافل الخاصة والعامة إلا بأذم العبارات وشنيع المقالات.

ومما لامراء فيه، أن اختيار الفقيه بن العربي لهذا المنهج الخطابي في الدرس والدعوة والتواصل المفتوح، لم يكن إلا تجسيدا صادقا للعقيدة السلفية[14] التي تشربها فكرا وسلوكا في حياته، وهي عقيدة لم تكن في جوهرها تتبنى دعوة ماضوية انطوائية رجعية من خلال ارتهانها إلى نموذج السلف الصالح بوصفه النموذج الأمثل والأكمل والأوحد الذي ينبغي اتباعه والاقتداء به في الحال والاستقبال[15]، وإنما كانت عقيدة متفتحة ومتحررة من كل دوغمائية أو انغلاقية أو تعصب. فبقدر ما كانت تعتبر أن في ماضي الأمة تكمن أصالتها وإبداعيتها التي ينبغي البناء عليها والنسج على منوالها لاستئناف دورة النهوض والتجديد والإصلاح مرة أخرى، بقدر ما كانت تعتبر أن في راهن الأمم الأخرى ومدنيتها الحديثة ما هو خليق بالاقتباس من نموذجها الحضاري والإفادة مما أحرزته، في سياقه، من تقدم علمي وتقني وتمدن اجتماعي وعدل سياسي. وهو ما يعني، بعبارة أخرى، أنها كانت سلفية وطنية تحررية تقدمية، لم تكن الدعوة فيها للرجوع إلى الماضي دعوة للتقليد والتحجر والاتباعية، وإنما كانت دعوة من أجل تحرير العقل وتجديده وتقويم الحاضر المنحرف وتحديثه

بغية صياغة مستقبل وطني رائد وواعد[16].

ولعل هذا التداخل والترابط العضوي الموصول بين المنزع السلفي والميول الوطني في الفكر الإصلاحي للنخبة المغربية إبان عهد الحماية هو ما عبر عنه الأستاذ علال الفاسي بعبارة أوضح حينما قال: «ومن الحق أن نؤكد بأن امتزاج الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية كان ذا فائدة مزدوجة في المغرب الأقصى على السلفية والوطنية معا، ومن الحق أن نؤكد أن الأسلوب الذي اتبع في المغرب أدى إلى نجاح السلفية لدرجة لم تحصل عليها حتى في بلاد محمد عبده وجمال الدين»[17].

والواقع أن هذا الجمع الجدلي بين ثنائية «السلفي» «والوطني» في وحدة الفكر الديني والسياسي للفقيه محمد بن العربي العلوي هو ما أضفى على حضوره ونشاطه في المشهد السياسي الوطني إبان العقود الأربعة التي أعقبت التوقيع على معاهدة الحماية طابع التميز والخصوصية. لأن الآراء التي عبر عنها في كثير من القضايا والنوازل الاجتماعية التي واجهها في مناسبات عديدة، والمواقف السياسية الجريئة والصريحة التي أطلقها، بل وجسدها في الواقع العملي، حيال ما كان يجري في المغرب آنذاك، من أحداث وتطورات غاية في الحساسية والخطورة، جعلته لا يتردد في كسر حواجز وموانع كثيرة تتصل، تارة، بالعادات والتقاليد المتوارثة عبر الأجيال، وتارة أخرى، بالمسؤوليات التي تقلدها في مواقع وظيفية مختلفة.

فحينما ولي القضاء بفاس الجديد والأحواز، لم يسلك الفقيه محمد بن العربي ذات المسلك الذي كان يشتغل وفق منهاجه وضوابطه جل القضاة والعدول والعلماء بفاس في ذلك العهد، حيث اشترط على الجهات التي اختارته لتولي هذه المسؤولية بأن يتصرف في الأحكام بما يظهر له «أنه الحق غير متقيد لا بخليل ولا بفتاوى فلان»[18]. بيد أن هذا المسلك الاجتهادي المتحرر الذي اختاره في مزاولة هذا الوظيف الشرعي الحساس، لم يكن ليروق طائفة واسعة من العلماء والعدول والشيوخ المتزمتين بفاس والمعتادين في إصدار الأحكام وتقريرها على مصادر معلومة في الفقه وعلى طرق تقليدية جافة في استنباطها. ويوم اشتد الخلاف بينهما ورفع هؤلاء عرائض استنكار ضد الفقيه بن العربي وزميله الشيخ عبد السلام السرغيني متهمين إياهما بأنهما يفسدان» عليهم شبابهم بما يركزان فيهم من أنواع الإلحاد والزندقة»[19]، استدعيا إلى مكتب الاستعلامات في البطحاء، ولما استمعا إلى صك التهم الموجهة إليهما، أجاب الفقيه بن العربي المسؤول الفرنسي آنذاك بجواب، كان فيه كثير من الحكمة والنباهة جعله يدرك على التو سخافة تلك التهم وبطلانها، ومما قال فيه «هؤلاء الذين اشتكوا بنا هم في الحقيقة يشتكون بكم لأنكم فتحتم لأبنائهم المدارس الابتدائية والثانوية وهل من يدرس آراء سقراط وأرسطو ولامرتين وفكتور هيجو والفرابي وابن سينا وابن زهر وغيرهم- هل- في استطاعته أن يذهب لخرصة مولاي إدريس يكحل بها عينيه طالبا منه المال ولمولاي يعقوب ليطلب الأبناء ولسيدي الظهار ليشفي منه داء الروماتيزم ويشرب ماء سيدي أحمد التيجاني ليشفيه من جميع الأمراض. لذلك فأنتم مسؤولين عن انحراف شبابهم»[20].

وهذا المنحى الاجتهادي التجديدي الذي كان يملك على الفقيه بن العربي جماع فكره ورؤيته لما كان يجري من حوله، هو ما جعله، حتى في ميدان الإفتاء، الذي هو ميدان الاجتهاد في تأويل النصوص الشرعية لتكون الأحكام المستنبطة منها مطابقة لمقتضى الأحوال ومتغيراتها، يجنح في كثير من النوازل والمسائل التي استفتي فيها إلى إصدار فتاوى أباح في بعضها «مكروهات»، وفي بعضها الآخر، «ممنوعات»، مخالفا بذلك ما كان متداولا في شأنها من أحكام في مدونات الفقه التقليدية. لأنه كان مقتنع وفق رؤيته الفقهية المقاصدية أن درء «المفاسد هو مقدم على تحقيق المصالح» وأن «الضرورات تبيح المحظورات» حتى ولو كان ذلك في أمور تصنف فقهيا على أنها من باب «الحرام البين» الذي لا تجوز معه أي اجتهادات أو تأويلات خارج ما هو مقرر من أحكام ثابتة في أصول المذهب المالكي[21].

وانسجاما مع هذه الرؤية الفقهية المجددة والمتفاعلة مع هموم العصر وتحولاته، لم يكن الفقيه بن العربي يرى غضاضة في الانفتاح على المذاهب الفقهية الأخرى والاستفادة مما تزخر به كتب أئمتها والمجتهدين من علمائها في شتى أبواب الفقه وفروعه. ولذلك فحينما كان منتصبا للتدريس في جامعة القرويين، لم يتردد، في الجمع في الدروس التي كان يلقيها أمام الطلبة بين الفقه المالكي وغيره من فقه المذاهب الأخرى، لأنه كان يدرك إدراكا، لا يرقى إليه أدنى شك، أن مساحة التلاقي

والاشتراك بين هذه المذاهب مجتمعة هي أكبر كثيرا من مساحة الافتراق والاختلاف فيما بينها[22].

وعلى خلاف دعاة التعصب والانكفاء على الذات من رموز السلفية التقليدية، كان محمد بن العربي يحث طلبته وتلامذته في القرويين وثانوية مولاي إدريس على الإقبال على تعلم اللغات الأجنبية ولاسيما اللغة الفرنسية، لأنه كان يؤمن بأن اكتساب ناصية هذه اللغات هو السبيل الوحيد الذي يسمح باكتشاف ما حققته الحضارة الأوروبية الحديثة من فتوحات علمية ومعرفية هائلة طالت كافة الميادين، كما يتيح، في المقابل، الوعي بأن رفع التحدي الذي يمثله وجهها الاستعماري المقيت، لا يمكن أن يتحقق، ابتداء، إلا بإعادة النظر إعادة شاملة في مجمل مكونات النسق التعليمي المتداول آنذاك سواء في جامعة القرويين أو في غيرها من المؤسسات التعليمية العتيقة الأخرى.

وإذا كان من الصعوبة بمكان، الإحاطة في هذا السياق، ولو بصفة مجملة، بالرؤى التي كان يطرحها الفقيه بن العربي حول الواقع التعليمي ومشكلاته، فالمؤكد أنه كان من دعاة إصلاح جامعة القرويين ومن المتحمسين لفكرة إعادة تأهيل برامجها الدراسية ومناهجها التعليمية بما يتماشى مع المستجدات العلمية العصرية، ويستجيب، في نفس الوقت، للتحديات الحضارية التي تواجه حاضر المجتمع المغربي ومستقبله[23].

ولما كان الاتجاه الإصلاحي للفقيه محمد بن العربي، بوصفه كان أحد أشهر رواد السلفية الجديدة ودعاتها في مغرب الحماية، يؤسس أطروحته المرجعية على أساس مقولة أنه «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، فإنه لم يدخر جهدا، في الدعوة إلى إتباع منهج السنة وإلى اقتفاء أثر السلف الصالح باعتبارهما المدخل الذي لا انفكاك عنه «لتربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام بصفته المتكفل بصلاح الأمة في دينها ودنياها، وإعدادها لتكون لها الخلافة في هذه الأرض»[24]. كما لم يتورع، في ذات الاتجاه، عن محاربة البدع المستحدثة والمعتقدات الخرافية التي أشاعتها الطرق والزوايا بين شرائح المجتمع حتى أن مطلق العوام لم يعودوا يقبلوا عنها بديلا في كثير من الأحيان. ونظرا للأدوار الخطيرة التي لعبتها الطرقية في انحرف الناس عن جادة الشرع وبث الخرافات والأوهام في وعيهم الديني والاجتماعي، فإن الفقيه بن العربي، كما كان دأب شيخه أبي شعيب الدكالي، لم يأل جهدا أو يدخر وسيلة، في مقاومة فكرها المضلل وشيوخها الخونة المتنطعين الذين أداروا ظهورهم للقضية الوطنية وشنوا على رموزها الأوفياء حملات تشويه وتشنيع لا هوادة فيها. وقد توزعت، في هذا السياق، مقاومته الشديدة للاتجاه الطرقي وممارساته المنحرفة، بين براعة النكتة وصراحة القول وعنف التقريع المستند إلى الحجج الدينية القاطعة والصريحة، وبين مبادرات التغيير والإصلاح المباشر على الأرض من خلال المسارعة أحيانا إلى إزالة وتحطيم بعض النصب والأوثان التي كانت محل تقديس وتبرك من طرف عوام الناس[25].

ولم يكن هذا التوجه السلفي الإصلاحي ليثنيه عن التصدي لبعض العادات والتقاليد التي كانت مستشرية على أوسع نطاق في المجتمع المغربي والتي تحولت، مع مرور الوقت، إلى ما يشبه الثوابت والقواعد الملزمة التي لا يمكن أن يطالها التغيير أو التجاوز، بأي حال. ومن ذلك على سبيل المثال: زواج الشريف إلا من شريفة، وهو تقليد كان متجذرا في منطقة تافيلالت وغيرها من مناطق الجنوب المغربي. غير أن الفقيه بن العربي، وبحكم جرأته ونزوعه الثوري المتمرد، قد أقدم على كسره بزواجه من إمرأة تنتسب إلى بيت عامي وكانت، في نفس الآن، أما لطفلة من زواج سابق[26]. كما لم يكن يرى من مانع في ارتداء المرأة للباس العصري حيث سمح لابنته الصغرى بارتداء الزي الجديد، وهو اختيار كان يتناغم مع موقفه الداعي إلى تعليم المرأة وخروجها من البيت للعمل في الخارج والسماح لها بحق اختيار من يناسبها من الأزواج. وهي مواقف كانت كلها قد واجهت، يومها، معارضة شديدة من طرف كثير من العلماء والفقهاء وشيوخ الزوايا ممن كان بعضهم منحازا، بل وحليفا للإدارة الاستعمارية، حيث كانوا يعتبرون أن ارتداء المرأة للباس العصري وتخليها عن «اللثام» وخروجها من البيت للتعلم أو للعمل إضافة إلى غيرها من الحقوق المدنية الأخرى التي صارت أكثر تداولا في المغرب بعد الاحتكاك الذي حصل مع مظاهر الحداثة الأوربية، إنما هو فسوق ومروق لا يجوز،بأي حال، قبوله لا شرعا ولا عرفا[27].

ملامح وطنية الفقيه محمد بن العربي وتجلياتها السياسية

مما لا يخفى، أن الفقيه بن العربي العلوي لم يكن مرتبطا بالحركة الوطنية ارتباطا تنظيميا أو سياسيا مباشرا، كما لم يكن يصدر في مواقفه السياسية المعانقة للخط التحرري الوطني عن علاقة تنسيق أو تعاون ظاهر مع قادتها، وإنما كان يمارس وطنيته بصدق وحرقة عز نظيرهما، انطلاقا مما كان يمليه عليه ضميره الأخلاقي والديني كعالم ومصلح سلفي ملتزم بهموم وطنه، غيور على مصيره ومستقبله.

وإذ نسجل هذه الحقيقة، فإنما لنؤكد أنه حتى مع غياب هذه العلاقة التنظيمية أو السياسية المباشرة، فإن الفقيه بن العربي كان يلتقي مع الحركة الوطنية على قضية واحدة مشتركة هي قضية العمل من أجل تحرير المغرب وانعتاقه من براثين الاستعمار الأجنبي، حيث كان كل طرف على حدى، يعمل ومن موقعه الخاص، على تحقيقها، بوسائله وأساليبه الخاصة.

لكن هذا المعطى الإجرائي الخاص، لا يعني في شيء، أن الحركة السلفية في مضمونها الجديد والتي كان الفقيه بن العربي أحد أشهر أقطابها ودعاتها في المغرب زمن الحماية، كانت منقطعة الصلة عن الحركة الوطنية من جهة ما كانت تسعى إلى تحققيه من رهانات وتطلعات سياسية، بل كانت، على العكس من ذلك تماما، شديدة الارتباط والتفاعل معها، لأنها كانت ببساطة هي المدرسة المرجعية التي نشأت وتبلورت في حضنها الشخصية الثقافية والسياسية للجيل الأول المؤسس لنواة الحركة الوطنية وخلاياها التنظيمية الأولى. ولعل ذلك هو ما يكشف عنه أحد أشهر خريجي هذه المدرسة وهو الأستاذ علال الفاسي لما يقول: « لقد وجد الشباب المغربي في دائرة الحركة السلفية ميدانا لبذل نشاطه وتعويد نفسه على العمل لخدمة الأمة والتضحية في سبيلها، وهكذا تكونت منه مجموعة بفاس والرباط وتطوان لم تلبث أن أخذت تتناول الشؤون العامة بأسلوب غير الأسلوب الأول، وكانت مقاومة المشايخ الذين استفادوا من نظام الحماية فعملوا لبقائه في مقدمة ما تقوم به من الأعمال. وسرعان ما تأسست جماعات صغيرة لدراسة القضايا القائمة، والعمل على تنوير الرأي العام بأضرارها..»[28]. ثم يضيف، في سياق آخر، موضحا ما كان للسلفية من بالغ الأثر على مسار تطور الوعي الاجتماعي والسياسي للرعيل الأول للحركة الوطنية قائلا: «.. فالذي لا شك فيه هو أن السلفية عملت عملها في تسيير آلتنا النفسية وتوجيه تفكيرنا نحو التجدد المنشود في جميع مظاهر حياتنا، ونحو هذا التحرر الذي ظل طابع حركتنا، وصوب هذه الوحدة العربية التي لم تزل مطمح آمالنا، ونحو الروح الديمقراطية التي تسيطر علينا»[29].

وبحكم أن التيار السلفي الإصلاحي الذي انتسب إليه الفقيه بن العربي، وقاد حركته في المغرب، كان تيارا يدعو إلى تحرير الفكر وإطلاق حرية العقل في حدود ما تسمح به الأصول الأولى للدين وكلياتها، فإن ذلك، لم يكن، في واقع الأمر، ردا مباشرا، فقط، على مقولات الخطاب الاستعماري التي كانت تحاول يائسة أن توهم المغاربة بأن علة تخلفهم وسبب انتكاستهم، إنما يعود إلى الإسلام الذي ارتضوه، عقيدة وشريعة، منذ أزمنة بعيدة، وإنما كان أيضا، تعبيرا، عن قناعته الفكرية والمذهبية التي كانت ترى في الإسلام، البديل الذي لا محيد عنه، للتحرر من آثار التخلف والدونية، والسبيل الأوحد، لمناهضة الاستعمار والتصدي لكل أشكال الاستلاب ومظاهر التغريب والخنوع التي صارت تخترق كيان المجتمع المغربي اختراقا حثيثا.

وهذه السلفية المقاومة للرجعية والاستعمار «والتي طبعت الفكر المغربي عند القادة الأوائل الذين قامت على نضالهم الحركة الوطنية»[30]، هي نفسها، التي أعادت الثقة والثبات والإقدام للقوى الوطنية ومعها كافة فئات الشعب المغربي، بعد أن أخذت منهم مشاعر اليأس والوهن والارتباك كل مأخذ على إثر هزيمة المقاومة المسلحة في الأطلس المتوسط والريف[31].

لذلك كان طبيعيا، والحالة هاته، أن يكون للفقيه محمد بن العربي العلوي الذي أسهم بجد ونشاط، إلى جانب أستاذه أبي شعيب الدكالي، في استنبات البذور الأولى لهذه الحركة واتساع دائرة إشعاعها الفكري والدعوي، حضور لافت ومحسوس في مجريات الأحداث التي شهدها المغرب غب انتهاء مرحلة المقاومة المسلحة وانطلاق مرحلة المقاومة السياسية.

فعندما أصدرت السلطات الاستعمارية الفرنسية ظهير 16 ماي 1930م المعروف «بالظهير البربري»

المشؤوم، بهدف التفرقة بين مكونات النسيج الاجتماعي الوطني على أساس الانتماء العرقي والجغرافي والانتساب الثقافي والعرفي، اندلعت في مختلف أرجاء البلاد مظاهرات شعبية واسعة منددة بهذا المخطط الفرنسي البغيض الذي كان يستهدف في عمقه ضرب الوحدة الوطنية للمغرب والنيل من مقوماتها العقدية والحضارية الممتدة عميقا في جذور التاريخ. وبحكم ما كانت تثيره، يومئذ، محاضرات علال الفاسي، الطالب الشاب والناشط الوطني، المستنكرة والمناهضة بشدة لهذا الظهير، من حماسة وتحريض ضد المستعمر، تدخلت الإقامة العامة الفرنسية لدى المجلس الأعلى للقرويين لحث أعضائه على اتخاذ ما يلزم من إجراءات حازمة لمنعه من مواصلة هذا النشاط التوعوي التحريضي. غير أن استماتة الشيخ محمد بن العربي في الدفاع عن علال الفاسي وصموده وجه كل محاولات أعضاء المجلس الرامية إلى إصدار قرارت قاسية في حقه، قد فوت على الإدارة السياسية للاحتلال، والمتواطئين معها من علماء جامعة القرويين، فرصة الانتقام منه والإجهاز على نشاطه الوطني وهو لا يزال في المهد[32].

ويوم قدمت الحركة الوطنية وثيقة 11 يناير المطالبة بالاستقلال سنة 1944م بعد أن يئست من نهج المطالبة بالإصلاحات، أقدمت سلطات الحماية على حملة اعتقالات واسعة في صفوف الوطنيين المغاربة انتهت بسجن ونفي وإعدام عدد كبير منهم، وذلك في محاولة منها لإسكات صوتهم وفل شوكتهم. واحتجاجا منه على هذه الإجراءات التعسفية والكيدية للإقامة العامة، فضلا عما صار يشعر به، منذ مدة، من ضجر واستياء عميقين بعد تحوله على رأس وزارة العدل إلى ما يشبه «الوزير الدمية» الذي لا يتمتع بأية صلاحيات فعلية، قدم الفقيه بن العربي استقالته إلى السلطان محمد الخامس. وحين استجوبه في منزله بلعلو المسؤول عن القسم السياسي آنذاك في الإقامة العامة بونفاس قائلا: «..عجيب أن يوافق شيخ مثلك له المكانة المرموقة في الدولة على طلب قدمه شباب طائش (الوطنيون) لا يقدر المسؤولية»[33] فأجابه بن العربي قائلا: «الأغرب هو أن لا يوافق شيخ مثلي يقدر مسؤوليته المدنية والروحية على تحرير بلاده من ربقة الاستعمار وطغيانه». ولما هدده بالسجن والنفي والإعدام رد عليه بن العربي بتحد وإيباء نادرين قائلا: «أنت تهددني، الأمر لا يعدو أن يكون نفيا فسياحة أو سجنا فعبادة أو موتا فشهادة»[34]. وبسبب هذا الموقف الوطني الجريء نفي إلى قرية القصابي ومنها إلى مدغرة، حيث موطنه الأصلي.

وفي سياق أجواء التوتر والفتور التي اعترت بشكل أعمق وأخطر العلاقة بين الإقامة العامة والقصر عقب ظهور العريضة المسماة عريضة 27 التي أعدها المقيم العام جوان بهدف عزل السلطان محمد بن يوسف ومحاصرته في أضيق زاوية ممكنة بعد امتناعه عن التوقيع على عدة مراسيم ومشاريع سياسية واقتصادية كانت الإقامة العامة تنوي تنفيذها، كان الفقيه بن العربي من بين العلماء الذين وقفوا، صفا واحدا، منددين بهذه العريضة ورافضين لما ورد فيها، أشد ما يكون الرفض، حيث راسلوا، في شأنها، الحكومة الفرنسية وأطلعوها على خطورة محتوياتها حتى تتحمل مسؤوليتها أمام الإقامة العامة في الرباط[35].

وغداة نفي السلطات الاستعمارية للسلطان محمد الخامس إلى جزيرتي كورسيكا ومدغشقر في غشت من سنة 1953م وإتيانها بالصنيعة بن عرفة ليحل محله على عرش البلاد، كان الفقيه بن العربي العالم الوحيد الذي امتنع بشدة عن التوقيع على بيعته، خلافا لعدد كبير من العلماء المغاربة الآخرين ممن كان بعضهم محسوبا على أهل الصفوة والوجاهة، وكان مما قاله للجنرال لابارا لدى مخاطبته له في هذا الخصوص: «إنكم بصريح العبارة تساومونني على الخيانة، وأنا في هذه السن العالية. ولو كان يمكن لي أن أخون بلادي لفعلت ذلك وأنا شاب استقبل الحياة، فكيف أفعله الآن وأنا شيخ أستدبر الحياة»[36]. وكان ثمن هذا الموقف الوطني الشجاع أن نفي إلى مدينة تيزنيت التي قضى في سجنها عاما ونيف.

خاتمة

قد لا نجانب الصواب إن قلنا في منتهى هذه الوقفات العجلى مع شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، أنه كان حقا شخصية استثنائية في تكوينها وقوة أدائها وطعم مواقفها. فهو وإن كان سلفي المنزع والرؤى إلا أنه كان على درجة عالية من التحرر والمعاصرة حتى ليخال للمرء أحيانا أنه كان حداثي المشرب والهوى. فقد أفنى عمره وهو يعلم ويدعو ويصلح معتبرا أن إي إصلاح يطلب، مهما كان باعثه أومقصده الاجتماعي،

إنمـا مرجعه إلـى صلاح الدين وطهريتـه من ادعاءات المدعين من الطرقية والدجالين. وأن أي تحرر يرتجى، مهما كان سياقه أو أفقه السياسي، لا يتأتى إلا بتحرر الإرادة الوطنية ورفع القيد الاستعماري. وهي مواقف، كما ترى، تمزج بين البعد السـلفي والبعد الوطني في معادلـة واحدة هي معادلة الإصلاح والتحرر التي ظل الفقيه بن العربي يبذل، قصارى جهده، لتحقيقها، إلى جانـب القوى الوطنيـة الأخرى، برغم كيـد المتآمرين وآلام السجون والمنافي، أملا في أن ينعم الجميع بعد الاستقلال بمغرب مسلم وحر وعادل.

الهوامش

1 – أحمـد عبـد اللـوي علـوي، مدغـرة وادي زيز، إسـهام في دراسـة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشـؤون الإسـلامية، مطبعة فضالـة، المحمدية، 1996، ج2، ص255.

2 – امحمـد بـن هاشـم العلوي، من وراء السـدود أو الحركـة الوطنية بفاس من 1937 إلى 1944، دار الثقافة للطباعة والنشـر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1980، ص86.

3 – ثريا برادة، العلوي، محمد بن العربي، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2003–1424، ج18، ص6163.

4 – بن هاشم العلوي، من وراء السدود، ص97.

5 – الفقيه الإدريسـي، محمـد بن العربي العلوي المدغري، موسـوعة الحركـة الوطنيـة وجيـش التحريـر بالمغـرب، المجلـد الأول، ج2، ص178

6 – نفسه، ص180–179.

7 – أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز،ج2، ص257.

8 – الإدريسي، محمد بن العربي العلوي، ص178.

9 – مـولاي علـي بن المصطفى العلوي، فتح القدوس القاهر في نسـب أبـي محمد عبـد الله بن علي بن طاهر الحسـني، مخطوط خاص، ص 170 وما يليها.

10 – عبـد الكريـم غـلاب، تاريـخ الحركـة الوطنيـة من نهايـة الحرب الريفيـة إلـى بنـاء الجدار السـادس في الصحـراء، مطبعة الرسـالة، الرباط، 1987، ج1، ص54.

11 – أبـو بكـر القـادري، مذكراتي فـي الحركة الوطنية مـن 1930 إلى 1940، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ج1، ص263.

12 – بن هاشم العلوي، من وراء السدود، ص97.

13 – أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية، ج1، ص249

14 – نفسه.

15 – حول مضمون هذه العقيدة وأسسها المرجعية في الفكر المغربي خصوصـا والثقافـة العربيـة عمومـا، أنظـر: محمـد عابـد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988، ص57–34؛ سـعيد بنسـعيد العلوي، الاجتهاد والتحديـث: دراسـة في أصول الفكر السـلفي في المغرب، منشـورات مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992، ص26–20.

16 – أبـو بكر القـادري، رجال عرفتهـم في المغرب والمشـرق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ج6، ص،42–41.

17 – غلاب، تاريخ الحركة الوطنية، ج1، ص52.

18 – علال الفاسـي، تاريخ الحركات الاسـتقلالية فـي المغرب العربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الخامسـة، 1993، ص154.

19 – ابن هاشم العلوي، من وراء السدود، ص87.

20 – نفسه

21 – نفسه

22 – الإدريسي، محمد بن العربي، ص180.

23 – برادة، العلوي، محمد بن العربي، ص6165.

24 – الإدريسي، محمد بن العربي، ص180.

25 – علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص156.

26 – حـول هـذه المبـادرات يسـوق امحمـد بن هاشـم العلـوي مثالا بالـغ الدلالة إذ يقـول:» لما كان قاضيا بفـاس كان الناس يتعلقون بسـدرة في سـيدي بوغالب ويعقدون بها التمائم والخرق والشعر كل حسـب طلبـه ومتمنياتـه وكانت حملة الشـيخ ضد هـذه البدع والخرافـات عارمـة لا تعرف هوادة. وفـي يوم ما وبعد أن طلب من تلامذته بالقرويين والمدرسـة الثانوية وكان من جملتهم الأساتذة عـلال الفاسـي وعبـد العزيز بن إدريـس ومحمد الزغـاري إلخ. أن يحضروا معه إلى السـدرة المذكورة – ولما وقف بإزائها اقتلعها من جذورها وحملها لمنزله وطبخ بها خليعة مناديا فيهم متحديا فليأكلني غولها» من وراء السدود،ص92.

27 – برادة، العلوي، محمد بن العربي، ص6164.

28 – الإدريسي، محمد بن العربي العلوي، ص180.

29 – علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص159.

30 – نفسه، ص158.

31 – غلاب، تاريخ الحركة الوطنية، ج1، ص55.

32 – نفسه.

33 – برادة، العلوي، محمد بن العربي، ص6166.

34 – بن هاشم العلوي، من وراء السدود، ص82.

35 – نفسه، ص83.

36 – الإدريسي، محمد بن العربي العلوي، ص182.

37 – الفرقانـي محمـد الحبيب، الثورة الخامسـة صفحـات من تاريخ المقاومـة وجيـش التحرير، دار النشـر المغربية الـدار البيضاء، 1990، ج1،ص311.